الفرع السادس

أثر الوقف على حرية التعليم والثقافة

مـــن الواضح والثابت أن الوقف أسهم إسهاماً عظيماً في نشر العلم والثقافة الإسلامية، وكان الأساس والقاعدة التي قامت عليها الحضارة الإسلامية من خلال الدعم العظيم والسخي لـــتمويل كافـــة المشروعات العلمية التي كان لهم الأثر الواضح في إعداد العلماء والدعاة الذين أثروا الحياة العلمية والثقافية.

"إن التعلـــيم في الإســـلام- في السابق- لم يعتمد على الدولة إلا اعتماداً جزئياً إذ قد اعتمد بالدرجة الأولى على ما يوقفه المحسنون والورعون من المسلمين لأغراض دينية؛ لذلك نجد أن هـــنالك نـــوعاً مـــن التباين بين ما حدث في المجتمع الإسلامي، وبين ما حدث في المجتمع المسيحي في الغرب خلال العصور الوسطى، خاصة في الحياة الثقافية والحياة الدينية ففي الغرب كـــان النـــبلاء هم القادة السياسيين لمجتمعهم وكانت هناك الطبقة العليا من رجال الكنيسة في المجتمع الغربي يتصلون بصلة الأخوة أو القرابة مع الطبقة النبيلة الحاكمة وينتمون جميعاً إلى طبقة اجتماعية متميزة ومنفصلة عن باقي الشعب؛ لذا فإن الحياة الثقافية بصورتها الرئيسة في المجتمع الغربي كان نشاطها محصوراً في الكنائس وتحت سيطرتها، كما أن الكنيسة كانت تخضع لتنظيم محكم ومسيطر عليه.

فقد كان أمر المعتقدات وولاء المؤسسات التعليمية في الغرب المسيحي، قد خضع لرقابة شـــديدة إذ إن من كان يتهم بالهرطقة أو بأي انحراف عن تفكير رجال الكنيسة يعتبر أمر حياة أو موت بالنسبة للمتهم" [1] .

إلا أن حـــرية الفكـــر والبحث والتأمل كانت مكفولة في ظل الإسلام، طالما أن الفكر والبحث والتأمل كانت في المجالات المشروعة التي شرعها الإسلام، واعتبرها مطلبًا شرعيًا؛ مثل البحث في الكون والآيات التنزيلية والسنن الإلهية وغير ذلك مما شرعه الإسلام وبرز فيه علماء

---

(١) الدور الاجتماعي للوقف- د. عبد الملك أحمد السيد ص ٢٤٢-٢٤٣.

الإسلام، وقد كان للوقف دور بارز في دعم تلك المسيرة العلمية الرائدة.

"فقد كانت هناك مجالات مفتوحة لجميع الأفراد المسلمين للإرتقاء في السلم الاقتصادي والاجتماعي والتعبير عن قيم الشريعة ومفاهيمها بما يتيحه التعليم الذي يدعمه الوقف، لذا فإن رجـــال العلـــم سواءً أكانوا من علماء الدين وفقهائه، أم من علماء العلوم الطبيعية وغيرها من العلوم الدنيوية كلهم قد شعروا بالاستقلال عن رجال السياسة، بل لقد عارضوهم بقوة كلما حـــاول هـــؤلاء السياسيون الاعتداء على الشريعة ودافعوا عن قيمها وأسسها وتباري الحكام والأغنياء في أغلب العصور بتمهيد الجو للدارسين والمفكرين في إمدادهم بنفائس الكتب.

ولذا نجد أن العلماء كانت لهم استقلالية عن الساسة والحكام وعن المشاركة في الحكم إما تعففاً كما فعل الإمام أبو حنيفة لما طلب منه ذلك حينما رفض قبول منصب قاضي القضاة في الدولـــة الأمـــوية، ثم حين رفضه للمنصب مرة أخرى في أوائل الدولة العباسية، وكما فعل الإمام أحمد بن حنبل في ثباته على الحق في زمن المأمون لما قالت السلطة بخلق القرآن ولقي منها ما لقي أيام المحنة، فقد بقى العلماء مستقلين عن السلطة، غير خاضعين لها، معتمدين – بعد الله – علـــى الأمـــوال الموقوفة التي تغدق عليهم النفقات مما أعطاهم الاستقلال المادي والفكري، وبذلك استطاعوا أن يعضدوا حرية الفكر، كما أجبروا السلطة على الخضوع لقيم الشريعة كما فعل العز بن عبد السلام في أحكامه ضد السلاطين الأتراك.

إذ بقـــيت هذه الحرية والاستقلال الفكري يسود المجتمع الإسلامي في أغلب العصور، كما بقيت سيادة الشريعة هي سيادة عامة حتى عصور انحسار قوة المسلمين في العصور العثمانية المتأخرة في نهاية القرن الثامن عشر"[1].

وقـــد كان للوقف أثر بيّن في نقل العلم ونشره من خلال وقف الكتب والمخطوطات وعدم وجود أي نوع من أنواع السيطرة أو الاحتكار؛ حيث خصص الواقفون وقفيات لغرض إنشاء معامل للورق والنسخ وكل ما يلزم عمليات النشر والتوزيع وخدمة طلاب العلم.

---

(١) الدور الاجتماعي للوقف–ص٢٤٣–٢٤٤.